البعد العجائبي للمقهى في الرواية

كان للصورة التي تكفلت الرواية بتقديمها للمقهى الدور الأكبر في تشكيل شخصية المقهى الفنية، وكان للمساحة والوظائف، والأدوار التي قدمها المقهى روائيا الدور الأهم في رسم بعد يبدو عجائبيا آخذا طريقه لصنع جانب أسطوري للمقهى بوصفه شكلا من أشكال الأسطورة الحديثة .

لقد قدم الروائيون المقهى ليس بوصفه صورة فنية ترسم لصالح النص فحسب، وإنما هم عبروا عن علاقتهم بواقعهم، ولحظتهم التاريخية وعلاقتهم بالمكان بوصفه مجتمعا إبداعيا بالأساس، ومن الصعوبة بمكان أن نجد مبدعا ليس له علاقة بدرجة أو بأخرى بالمقهى، ويمثل جمال الغيطاني نموذجا لهذا النوع، لذا جاءت صورة المقهى لديه مفارقة في أبعادها لكثير من الصور التي قدمتها الرواية العربية .

في سيمترية يرسم الغيطاني لوحة فنية للمقهى تكشف عن :

ـ إطار زمني للمكان . ـ بعد عجائبي .

في "شطح المدينة" يفرد فصلا بعنوان : " المقهى وصاحبه" وهو فصل ينبهنا إلى نقطتين جديرتين بالدراسة في سياق المقهى :

الأولى : تتعلق بهذا الفضاء المميز للمقهى، الفضاء الذي يختزن الزمن ليس بوصفه تاريخا وإنما بوصفه حركة كونية، "اختلف عامة الناس والمتخصصون في عمره، قدره البعض بمائتين، وزاد آخرون قرنا كاملا وأثبت أجانب أنه كان قائما زمن الحملة الفرنسية، ثمة لوحة تصور جانبا منه فى كتاب وصف مصر الذي أعده علماء الحملة عن البلاد وما تحوي"[1].

هنا يمثل المقهى بؤرة زمنية تكشف تفاصيلها عن عوالم ماضية، وبؤرة مكانية

(١) جمال الغيطانى : شطح المدينة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٢٦ .

ترسم عالما كونيا موازيا، إذ يبدو المقهى اختزالا للعالم يقصده السياح وزوار الأولياء والأضرحة وفيه المرايا البلجيكية المصدر ذات النقوش الإغريقية والأواني الخزفية تركية الصنع، والسيوف والقوارير العطرية النادرة، وهي عناصر تفضي إلى تلمس كل ما هو عجيب :

"احتوى المقهى أيضا على أوان نحاسية منقوشة بالخزف الدقيق بعضها لاحتواء الماء أو لترص فوق الأكواب والأواني، ومن ذلك صينية منقوشة زخارفها مورقة متفرعة، متداخلة تتغير مع حركة الناظر فيصبح المثلث دائرة والخط المفرد مورقا والنجمة هلالا، حددت الزخارف بخيوط الفضة الممسوسة بالذهب، وعدها البعض من العجائب".

ولا تتكفل الأشياء المتعددة وحدها بطرح عجائبية المقهى، إنما يعمد الروائي إلى تقديم قصة الأشياء بدلا من أشياء القص مما يجعل لكل عنصر شيئي حكايته التي تكمل دائرة العجائبية فيه، يتأكد ذلك عند الحديث عن الأواني النحاسية المنقوشة وطريقة إنجازها مما يجعل المقهى مكانا منفتحا على العالم يحفز المتابع له أن يبحث عن مرجعيه هذا العالم[1] .

الثانية : النقطة الخاصة بصاحب المقهى والتي تأخذنا بدورها إلى الانتقال من الأشياء غير البشرية الخاصة بالمقهى إلى العناصر البشرية، فإذا كان لفضاء المقهى جغرافيته الخاصة التي تحتوي على عناصر ثابتة يمكن اختبار تاريخه من خلالها كالأواني أو اللوحات والمرايا وغيرها .

فإن عناصر بشرية لها صفة الثبات أيضا يمكنها القيام بالدور نفسه ونعني أصحاب المقاهي أو الطبقة الأعلى من طبقة أخرى لها أهميتها في هذا السياق وهي طبقة العمال "القهوجية" الذين يقومون بدور الوسيط بين صاحب المقهى الثابت والزبون المتحرك، إذ هم عناصر تتحرك حسب إرادة قوتين، صاحب المقهى من ناحية

(١) يتطابق هذا تماما مع عالم رواية الغيطاني نفسها، ذلك العالم الذى يبدو عالما لا مرجعية له من الواقع وإنما مرجعيته كونية إذ رددناها إلى أصولها لوجدنا أنفسنا أمام الكون كله، بما يضم من جوانب نظرية وعملية .

والزبون من ناحية أخرى، وهم على إطلاعهم ودرايتهم بالفريقين أكثر قدرة على استكناه طبيعة الثابتين والمتحركين .

لقد صنعت الرواية للمقهى شخصيته الخاصة ذات اللغة والأبعاد والتفاصيل الدقيقة، كما أن المقهى نفسه أعطى للرواية فضاء متميزا أتاح لها أن توظفه فنيا، ونجحت في انتاج الكثير من الدلالات، مما جعلها تنتج واحدا من المفاهيم الخاصة للمكان، المقهى .

obeikandl.com